أ. د. عبدالأمير سليماني
باحث عراقي

الخطاب الديني في آثار ابن ميثم البحراني

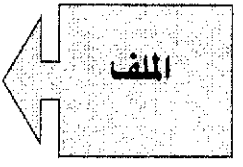

يشتمل المقال المقدم على اربعة بحوث:

المبحث الأول: شخصية إبن ميثم في محيطها

المبحث الثاني: الخطاب الديني .

أ- ماذا نقصد بالخطاب الديني ؟

ب- الخطاب الديني بين الخطابات الأخرى.

المبحث الثالث : الخطاب الديني ولغة العصر.

المبحث الرابع : الخطاب الديني في آثارا بن ميثم.

ـ هل كان الخطاب الديني لإبن ميثم واقعياً ؟

ـ هل يحتاج الخطاب الديني لإبن ميثم البحراني الى تطوير وتجديد ؟

ـ هل نحتاج الى اسلوب خطاب إبن ميثم البحراني في وقتنا الراهن ؟

المبحث الأول

شخصية ابن ميثم في محيطها

إن المرور بشخصية الفيلسوف والفقيه إبن ميثم البحراني يكشف لنا مدى عمق هذه الشخصية البارعة.

فقد ولد الشيخ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم بن المعلّى البحراني سنة ٦٣٦ هجرية الموافق لعام ١٢٣٨ م[١] وتوفي عام ٦٩٧ وقيل ٦٩٩هجري الموافق لعام ١٢٩٩ ميلادي[٢]. ودفن في «الماحوز» التي ينتمي اليها فقيدنا الراحل وهي من ضواحي المنامة عاصمة البحرين الحالية[٣]، وقبره معروف بها. ومنطقة الماحوز معروفة بتاريخها العلمي بل هي سابقة لوجود المنامة. وقد عاش إبن ميثم عصراً مليئاً بالتغييرات السياسية سواء داخل البحرين أو في عموم المنطقة؛ إذ أنه عاش أواخر الدولة العباسية وعاصر الغزو المغولي لبغداد عام ١٢٥٨م (٦٥٦هـ) ونهاية دولة العباسيين.

كما كانت ولادته مع انتهاء حكم العيونيين وهي قبيلة من عبد القيس، الذين بدأ حكمهم عام ١٠٥٨م وأنتهى حكمهم عام ١٢٣٨ م حيث بدأ حكم آل عصفور وهم أيضاً ينتمون الى عبد القيس.

كان إبن ميثم تواقاً للمعرفة والعلم وهو لا يتأتى إلاّ عن قوة العزيمة والجد وكبر الهمة. فتسلق سلم العلوم وصار علماً فقيهاً بارعاً أختار له خط الفقاهة. فما سلك طريق غيره من قبل أو بعبارة أخرى: لم يعش بأفكار مَن عاش مِن قبله، بل جد وأجتهد ووجد له طريقاً وأسلوباً يتناسب والعصر الذي عاشه، مما جلب أنظار بعض من أساتذته ومن عايشه وعاصره، كما توجه لدراسة الفلسفة دراسة واعية بإعتبارها أم العلوم التي تبحث في حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح، وكذا علم الكلام الذي يبحث في العقائد الإيمانية والعقائد المذهبية، والآداب والبلاغة وغيرها.

و للفائدة نشير الى أنه تتلمذ على أيدي جماعة من العلماء منهم :

الشيخ نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي المعروف بالخواجة نصير الدين الطوسي، حيث درس عنده الحكمة حتى وصفه الطوسي «أحد أعلام الكلام»، والظريف أن أستاذه الطوسي تتلمذ على يديه "الشيخ إبن ميثم" في الفقه. كما نقل الكثير ممن كتبوا عن إبن ميثم ما أسلفنا، وقد عرّف إبن ميثم فطاحل عصره مثل :

الشيخ جمال الدين علي بن سليمان البحراني الذي وصفه بالفيلسوف الكبير.

الشيخ ابو السعادات أسعد بن عبد القاهر بن أسعد الإصفهاني وصفه بأنّه كان عالماً فاضلاً محققاً. هؤلاء بعض أساتذته وربما آخرون.

أما من تخرج على يده وتتلمذ عنه ويعتبرون من تلامذته الكبار منهم :

الشيخ محمد جهم الأسدي الحلي.

الشيخ نصير الدين الطوسي كما أسلفنا درس عليه في الفقه.

العلامة الحلي الحسن بن يوسف بن المطهر.

السيد عبد الكريم بن أحمد بن طاوس الحلي.

الشيخ عبدالله بن صالح البحراني.

الشيخ الشريف الجرجاني.

وهنا نذكر مجموعة مؤلفات الشيخ ميثم البحراني:

١- آداب البحث.

٢- إختيار مصباح السالكين وهو شرحه الثاني على نهج البلاغة ثم الإختصار سنة ٦٨١ هـ .

٣- إستقصاء النظر في إمامة الأئمة الإثني عشر.

٤- البحر الخضم في «الإلهيات».

٥- تجريد البلاغة في المعاني والبيان ويسمى أيضاً «أصول البلاغة».

٦- شرح الإشارات. والأصل للشيخ علي بن سليمان البحراني.

٧- شرح حديث المنزلة.

٨- شرح رسالة العلم. والأصل للشيخ أحمد بن سعادة البحراني.

٩- شرح نهج البلاغة. وهو غير شرحيه مصباح السالكين وإختصاره، قيل هو شرح ثالث ولم يثبت ذلك.

١٠- غاية النظر في علم الكلام.

١١- قواعد المرام في علم الكلام. تم تأليفه سنة ٦٧٦ هـ.

١٢- مصباح السالكين لنهج البلاغة من كلام أميرالمؤمنين. وهو شرحه الكبير تم تأليفه سنة ٦٧٧هـ .

١٣- المعراج السماوي.

١٤- منهاج العارفين في شرح كلام أميرالمؤمنين. وهو شرح مائة كلمة من كلماته عليه السلام.

١٥- نجاة القيامة في تحقيق أمر الإمامة.

١٦- الوحي والإلهام.[٤].

المبحث الثاني

الخطاب الديني

إن الدين الإسلامي بل وكل الأديان السماوية غير المحرفة تنتهج نهجاً واحداً نحو الحياة الحرة الكريمة، وإن الدين تقوده المرجعية الدينية التي لا ترتبط بالمكان بقدر ما ترتبط بالأفراد. وهي (المرجعية) مهمة ووظيفة شرعية علمية ومسؤولية إلهية، كما هي مسؤولية حضارية وفقهية ينبغي أن تتسم بالجمالية في شكلها وتركيبتها وأعمالها وأفعالها وخطابها .. وهذا

بطبيعة الحال لا يتأتى إلاّ إذا كانت المرجعية ذات مسؤولية دقيقة يراعي فيها الخطاب الديني مسألة الزمان والمكان والإنسان، لأن كلام المرجعية له إمتداد تفاعلي عبر الزمان لا ينبغي أن تبقى مبتورة العلاقة بالموضوع أو بعالم الزمن وناسه والحداثة التي لا يمكن أن تصبح بمستوى الحقيقة دون الفاعلية الدينية التي تسبغ عليها جمالاً وحيوية.

لهذا فأننا في بحث موضوع الخطاب الديني نتعرض الى موضوعين رئيسين في هذا المجال، كي يكون مسار البحث واضحاً في أذهاننا:

أولاً – ماذا نقصد بالخطاب الديني ؟

ثانياً – الخطاب الديني بين الخطابات الأخرى.

أولاً – ماذا نقصد بالخطاب الديني ؟

الخطاب الديني : هو التعامل الفقهي مع الواقع المعاش وإجتياحه بأسلوب الحكيم ذي التأثير الثقافي الديني ضمن ثوابت الدين والتعامل مع مرونته الرائعة، بعين صوب مصدرها الثابت (القرآن) وعين لتأريخ تراثها المشرّف وماذا يحتاج أبناء عصره وزمانه وما يأتي المستقبل.

العالم الذي يحس المسؤولية هو من عاش عصره وعرف موقعه وماذا يتطلب هذا العصر منه ومن غيره، لا الذي تمدد مع الخيال ونسج حوله خيوطاً عنكبوتية في الظل دون أن تلامسها الشمس والهواء. نحن حينما نتحدث عن الخطاب الديني نتحدث عن خطاب تحركه وتصدره عقلية ذات إحساس مرهف جداً وشعور حساس بمسؤوليته وشخصيته وحركيتها في المجتمع وإلاّ فيمكنه أن يختار عملاً آخر كأن يدفع عربة لنقل الأثقال والأحمال فتبقى شخصيته يستنزف جزءاً كبيراً منها في هذه الحركة.

الخطاب الديني الذي لا يتأثر بحاكم ولا يحكمه رئيس ولا سياسة جوفاء ولا عصبية خرقاء ولا خرافة تافهة لا تنم إلا عن قصور في الذهن والتفكير والمعرفة وضيق في المحيط وعدم دقة في التعامل كما يحدث ذلك في كثير من الأوقات سيما عند إثارة فتنة أو تحقيق مأرب وافد من وراء الحدود. لتحقيق أهداف لا يعلمها إلاّ ذوي العقول والفكر.

و القائد والمرجع والمجتهد والمفكر والداعية وأمثالهم لابد أن يفكروا قبل أن يصدروا، ولمن يخاطبون ؟ وماذا يريدون ؟ وكم هو الثقل الذي تحمله كلمتهم ؟ وكم هو أثرها ؟ وماذا يبغون منها ؟ وما هي الغاية والهدف ؟ وهل هي وقتية أم دائمية، وإلاّ ستكون وبالاً عليهم في هذه الدنيا ومن ثم في الآخرة لا ينجون من عقابها.

انواع الخطاب الديني

تعدد الخطاب الديني. ويمكن القول أنه يشمل :

١- الفتوى : لمن هو أهلها ويستطيعها وله من يشهد له باهليته ممن حصل على شهادة أصحاب الفتوى وإلاّ أدعاء الأفراد أنفسهم بنظري غير تام الحجة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن مبدأ للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد مقولة تحتاج الى التأمل لأنّه يحدث فوضى. نعم، الله تعالى يثيب على نوايا الناس وليس على أعمالهم (لِيَبلوَكم أيّكم أحسَنُ عَمَلاً) ولكن المخطئ لا يسلم جائزة. كما أرى لها مردود عكسي وتشجيع نحو الخطأ.

وبالتالي فالمفتي ينبغي أن يدرس الفتوى حرفاً حرفاً وليس كلمة كلمة. حتى تأخذ الفتوى موقعها، في الظروف المطلوبة.

٢- المقالة : وهي أيضاً نوع من أنواع الخطاب الديني الذي يفرغه كاتبه في المجتمع ويحصل على أعوان ومؤيدين، ينبغي أن تكون المقالة موزونة بالميزان حتى يعرف ثقلها ومساحتها المؤثرة فيها.

٣- الخطابة : نعم. الخطابة بإعتبارها خطاب مباشر لابد أن تكون دقيقة التعبير تعيش الواقع وتمتاز بالمرونة، إنها ينبغي أن تشبه المبردة أو المكيفة التي يحتاجها الجو الحار أو العكس المدفأة التي يحتاجها الجو البارد.

٤- الكتاب : وهو خطاب كبير يعتبر مرجعاً ومصدراً ومآلاً يؤول اليه ويعول عليه فحينما يصدر من مرجع أو مصدر ديني وحتى أدنى منه فإنّه حساس. ولابد أن يظهر للمجتمع بشكل شفاف ورقراق ومحكم ونابع من فهم صاحب الخطاب للمجتمع كما هو وليس بالنقل. كان علي بن أبي طالب(ع) يجول الأسواق والطرقات ويفهم المجتمع، وكان الإمام الخميني(ره) لا يترك التلفاز والراديو واللقاء بالناس بشكل يومي وغيرهم .. لأن الإعتماد على النقل لوحده يؤدي في بعض الأحيان الى كارثة.

٥- الإعلان : وهو الآخر طريق من طرق الخطاب الديني ينبغي أن يتعامل معه العالِم والمفكر والمعلن بالشكل الذي يحمل ايجابيات الإعلان وردوده وهو ما سنذكره في موضوع صفات الخطاب الديني المطلوب.

٦- الندوة : وهي صورة واقعية يستغلها المسؤول والعالِم للتعبير وابراز رأيه وخطابه الديني، وكيف يجب أن تكون القضية والموقف المطلوب. وهي وسيلة تعطي الحرية الكبيرة للمفكر وعالم الدين أن يفصح بشكل واضح وشفاف عن خطابه الديني إجتماعياً كان أو سياسياً. ولذا تعتبر الندوة إطلالة المفكر على الأمة وشرفة واسعة يشرف منها المسؤول أو المفكر والفقيه بشكل مباشر على الأمة بآرائه المدروسة والملائمة للحالة التي يعيشها المجتمع.

٧- المقابلة الصحفية إذاعية كانت أو تلفزيونية أو مع صحيفة ومجلة بأي موضوع كان؛ علمي أو فقهي أو عقائدي أو سياسي وحتى أدبي أو شعري أو فني. فالأديب أو الفنان الذي يكتب لعصره وزمانه يجد إنجذاباً له من الناس ولكتاباته وقصصه ورواياته حينما تتناول الحقيقة والعلاج لقضية؛ فرواية نجيب الكيلاني المصري «عذراء جاكارتا» التي يتحدث فيها عن محنة المسلمين في نيجيريا وزعزعة المسلمين فيها وابراز الدور الخبيث لتدخل الإنكليز لتقسيم البلد الى مناطق عرقية ومذهبية .. قد طبعت ثماني مرات.

صفات الخطاب الديني المطلوب

لابد لمن يصدر خطاباً دينياً أو يحمل رائحة الدين أن يكون خطابه ممتازاً مسؤولاً مسؤولية أخروية وإجتماعية. ولهذا فينبغي أن يمتاز الخطاب بما يلي :

١- أن يكون أسلوب الخطاب الديني بعيداً عن الغلو والتطرف بطرفيه (تطرف حاد مبالغ فيه وتطرف تنازلي بلا دليل) سيما إذا عرفنا أن أسلوب المبالغة والتطرف مذمومٌ، وقد نهت عنه العترة الطاهرة عليهم السلام، ولا بد من معرفة هدف الكتابة والتصريح وآثارها وحيزها ومخاطبيها، وأن يكون الخطاب ناتجاً عن وعي وصلابة وما أحوجنا اليوم لهذا الأسلوب، وأن لا تكون خطاباتنا وكتاباتنا كما يريد الإستكبار العالمي وقائده الشيطان الأكبر، أو أركان هذا الإستكبار في بلادنا من أجل صياغة دين جديد، كتاباتنا يجب أن تكون في مسيرة التكامل المطلق في ذات الله تعالى ولرضاه وعزّه وحبّه.

(ولَنْ تَرْضى عَنْكَ اليَهُودُ ولاَ النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)[٥].

وقوله جلت قدرته :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ ويَخْشَوْنَهُ ولا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ)[٦].

٢- أن يكون الخطاب في طريق الرقي والتطور ومعايشة العصر والإنعتاق من أخطاء الدهور وإجتهادات تابعي الحكام الظلمة الذين تتعارض مصالحهم مع دين الإنسانية.

لا بد للعالم أن يقول كلمته التي تغذاها من كلام الله وسنة نبيه وإلاّ فعلمه سيكون وبالاً عليه ويفضحه الله في الدنيا ويخزيه في الآخرة ومن الذين لا تأخذهم لومة في دين الله وخلافة أرضه، وإلاّ كيف نُسمي هذا العالم من ورثة الأنبياء.

ومن الجدير بالذكر أن عالم الإسلام تميز في عصور خلت أنّه صاحب حضارة، بل هو مالك لهوية حضارية مميزة خاصة. ولهذا فالعالم الديني هو ممثل لهذه الهوية، وعليه أن يتابع مجتمعه الذي يعيشه وتطور هذا الزمان.

إن الفقيه الواقعي هو الذي يتعامل مع فقه الواقع ليكون حياً يتماشى مع الواقع الذي يعيشه المجتمع ومن حوله. هناك ما يسمى بفقه الأولويات.

بل هناك تميز بين العالم الذي يصدر فتواه أو أي خطاب ديني عن بينة وعلم وبصيرة هو يرعاها بنفسه وبين من يصدر خطاباً دينياً قائماً على سماعه وحدسه وأقوال الآخرين المدعين للعلم فيخرج خطابه جزافاً أو بدفع دافع.

نعم المثقف يختلف عن غيره حتى في الإستماع والتعرف الى كل الآراء، وتحليلها والرد عليها أو التوفيق بينها ما أمكن، ولكن ... بأسلوب هادئ وعقلائي يقنع الآخرين!!

٣- أن يكون الخطاب الديني مفعماً بالروح التقريبية بين المسلمين كما كان يفعل العظماء من السلف الصالح حينما يجلسون في مكان واحد وعلى

مائدة واحدة وتحت سقف واحد ويبغون هدفاً واحداً لكن سبل الهدف ربما مختلفة وكثيراً ما توحدت هذه السبل. كان العلماء الحقيقيون يبتعدون عن كل ما هو مثير للحساسية، أو يكون سبباً في إشعال فتيل نارٍ .. كما كانوا يتغاضون عن كل ما يؤمنون فيه ولايزال إعتقادهم هكذا، ولا يسبحون بأوزار الماضين التي يجتر بها البعض في يومنا هذا لإظهار ما في قلوبهم من سوء ظن قد نهى عنه القرآن الكريم، وبطبيعة الحال فإن نبذ سياسة التعصب وسيلة الوحدة خصوصاً مقابل أعداء الإسلام.

لماذا البحوث الفقهية. أليست من أجل إحياء الدين ونسج لحمته ؟ وقد عاش البحث الفقهي في خصوبة رائعة، إذا صح التعبير في الكثير من الأحيان واستطال لكل شؤون الحياة.

٤- الدراسة لكل محتويات الخطاب وعدم الإرتجال في إصداره : وهي نقطة هامة جداً، فكثير ما يرتجل زيدٌ أو عمرو في إصدار خطابه الديني. وهو لم يكن ناضجاً ومتكاملاً ويفقد الوعي فيؤدي الى إثارة سلبيات كثيرة وعندها يستدعي صاحبه أن يسحبه أو يتركه للزمن. مما سيثير متاعب عديدة له وتسوِّد صفحته في التأريخ، ولذا لابد للخطاب الديني - ونحن نقول ديني نسبة للدين - أن تنسجم مبادئه مع العقل والمنطق تحت ظلال العدالة والحرية، فحرية التدين يقرها الدين نفسه والعقل والمنطق.

٥ – المرونة في الخطاب الديني الذي تنطلق من مبادئ الدين نفسه في خلق مجتمع ينبذ القيد ويكره التخويف والإرهاب وينسجم مع السماحة والمنطق، فلا إكراه في ظل العدالة والسلام ولا عناد مع الدليل والحجة، فالعاقل من صدق عقله السوي لكن مبادئ الإسلام أيضاً تمنع المرضى والفيروسات القاتلة والمؤذية لمجتمع إنساني بل وحتى مجتمع الأحياء الأخرى فكيف للإنسان. إنها الحكمة الإلهية.

٦- أن يكون الخطاب الديني نافعاً مفيداً غير ممل يتناول موضوعات الساعة، مراعياً الزمان والمكان، فكما نطالب الأديب أو الفنان بأن يلتزم بفنه ومهارته، كذلك الرجل المسؤول في القيادة الدينية أو المفكر الإسلامي أيضاً عليه أن يلتزم بذلك، كما يقول أحد المتخصصين في الفن «إن الفن الديني مسؤولية إنسانية وحضارية، وهي مسؤولية فقهية وجمالية في الوقت نفسه».

فتوى القائد أياً كان عنوانه لها إمتداد فعلي وتفاعلي عبر الزمان، لها إرتباط بعالم الزمن وأناسه أكثر من الزمن نفسه.

ثانياً - الخطاب الديني بين الخطابات الأخرى

لا شك أن الخطاب الديني له نكهة وميزة خاصة بين الخطابات الأخرى. أهمها أنه يحمل مبادئ الدين التي تؤكد على :

١- إنسانية الإنسان.

٢- العدالة الإنسانية بكل مظاهرها.

٣- السلام والأمن والمحبة والإبتعاد عن كل ما يؤدي الى خلافها.

٤- عدم إلحاق الظلم وإن قل وبعيداً عن الغدر والخيانة والحسد والكذب و الإفتراء والتهمة وأمثالها.

إذا كانت هذه الثوابت من جملة مبادئ الدين الإسلامي فما بالك بكيفية الخطاب الديني، وكيف سيكون.

فإذا كانت الخطابات الأخرى تنبع من مبادئها وتعمل وفق أدوات تلك المبادئ، فإن الخطاب الديني كذلك ينبع من مبادئه؛ فالشيوعية لها خطابها الخاص والفاشية الإيطالية الموسيلينية لها خطابها الخاص بها، والليبرالية كذلك والصهيونية هي الأخرى والماوية أيضاً لكل له رؤيته

ونزعته وتوجهه ومبادئه، وإذا ما ذكرنا المسيحية والبوذية، والأديان الأخرى. فلكل مبادئه وأصوله، وقد نجد تفاوتاً في أقسام تلك الأديان .. لكن الإسلام له مبادئه التي يستقيم بها، في الوحدة والإعتصام والأخوة والمحبة والسلام وليس الحراب والتكفير والعداوة. وكل ما نشاهد مثل ذلك أو ينبئ عنه فإنه لا محال أنه ليس من الإسلام. بل مشكوك بصاحب الخطاب؛ إما جهله كلياً حتى بمبادئ الدين، أو وراءه يدٌ دفعت الثمن له مقدماً وهم كُثر في التأريخ من وعاظ السلاطين وحملة النياشين وأنصار الجبارين وأصدقاء الشياطين.

المبحث الثالث

الخطاب الديني ولغة العصر

لا أغالي إذا ما قلت: أن الخطاب الديني له وقع نافذ في الكثير من المجتمعات وأتباع ذلك الدين أو ذلك المذهب، كما لا يخفى أن العصر والزمان له وجود يختلف عن قبله من العصور؛ لتبدل الحكم وتبدل المعاش والحياة وتطور العادات والعلاقات وتقدم المدنية والتكنولوجيا والفنون، وهو ما يؤثر تأثيراً واضحاً على تفكير الإنسان وبرامج عمله ونمط معيشته. ولا ننسى التلاقح المستمر بين الثقافات والآداب وحتى اللغات والأساليب والنقل العلمي والترجمة وما الى ذلك من روافد الحضارات كل ذلك يؤثر على العصر الذي يعيش به الإنسان الأب والجد عن الإنسان الإبن والحفيد. ولهذا يذكر لأميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (ع) أنه قال : «علموا أولادكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم...» ومع تطور الحياة تتطور الأخلاق أيضاً وحتى الأطعمة فلم نسمع عن الأكلات السريعة Fast Food في الزمن الغابر والتي هي نتاج للمدنية. ولم نسمع بالتبرج بهذه الصورة حتى

صار عادة يصعب الإعتراض عليها، كما لم يصل الإستهتار بالقيم وشيوع الخلاعة وموت الشعور والغيرة لدى الناس في عصرنا الآن الى هذه الصورة ... فإذا كان السلف يمتازون بالشرف العالي والرفيع وصلابة العود فإن سلفهم أعظم منهم قبل أن تقوم جيوش الشهوات بإستلاب ثروة العقل لتسلب الفضائل الأخلاقية وتدرسها وافتقد الصدق والصفا ليستبدل بالشر والرذيلة.

الذي يدرس تاريخ علم الإجتماع يلاحظ الخط البياني لكل أمور الحياة ولذلك فإن لكل عصر لغة ولكل زمان دولة ورجال كما يقال.

و لكن أيضاً نقول لكل زمان خطاب ديني ولغة خاصة لهذا الخطاب؛ فإذا ما تأخر هذا الخطاب بأسلوبه، بتفحصه، بسبره للواقع المعاش، وإذا ما تخلف عن الركب الحضاري والمدني فسوف يقذف جانباً كما يقذف الزبد على ساحل البحر ويستمر التيار قوياً باللون المطلوب، وإن دخل الخطاب الديني التيار الجاري السريع وعمل لصبغ التيار بلونه فسيكون له الوجود والحياة ليسعد الآخرين وتقذف الأزباد جانباً حيث لا نفع فيها للناس.

إن تيار التجديد والحداثة الذي يجب أن يسلكه الخطاب الديني لا يعني بأي حال من الأحوال الخروج عن التراث مطلقاً، سيما إذا عرفنا أن الإسلام حارب تيار الجمود. والتقليد اللاواعي يعاكس التوجه العقلي الذي يدعو الى التجديد والتطور لابد أن لا يوقف عند ظاهر النص وحسب والجمود عنده والتقليد للتراث المتراجع المتوقف، بل التفكر في النص والأداء التجديدي بحيث يتوازن الثابت الدائم مع التجديد في الفروع. ومن أهم فوائد ذلك هو الغاء المسافة أو الفاصلة الزمنية والمكانية بين الجديد والتجديد، إلغاء القطيعة وعدم التوائم، لأن التجديد هو لمصلحة الإنسان ولابد من ملاحظة الإنسان ومكانته في هذا الوجود.

إنّ من الضروري في الخطاب الديني ولغة العصر ملاحظة التطور العلمي والتكنولوجي والتطور الفكري والأخلاقي والتطور الإجتماعي فضلاً عن التلاقح الثقافي الذي يجلب أموراً ربما لا تكون في الحسبان.

هل نحن بحاجة الى تجديد الخطاب الديني ؟

الكاتب والعالم والمفكر الحقيقيون هم من تعاملوا مع مجتمعهم تعامل الواعي اللبيب والحكيم الطبيب. وهذا المثقف الذي ينتسب الى الإسلام يجب أن لا ينعزل عن العالم، وإذا ما أخفق في وقت فعنده الفرص الكافية لتجاوز ذلك. لأن غياب المثقف الإسلامي الواعي يعني اللالقاء.

إن الخطاب الديني التجديدي ليس المقصود به الخطاب الديني على الطريقة الإمريكية .. وإنما الخطاب الديني التجديدي هو الخطاب القائم على ثوابت الإسلام وثوابت الإجتهاد الذي غاب وللأسف عند إخواننا السنّة على الرغم من النداءات المتكررة التي يدعو لها البعض لا سيما في مصر حيث تعقد ندوات لمناقشة فتح باب الإجتهاد كدعوة أبو العلا ماضي أحد رموز التيارات الدينية في مصر وغيره، لكن حركة الإجتهاد لدى مذهب أهل البيت (ع) قائمة على طول التأريخ الإسلامي.

نعم التجديد لابد أن يكون على ضوء هذه القاعدة الدينية الكبرى ... لأنّه كما نعلم ويعلم كل عاقل أن التجديد الخطابي هو خطوة في الإتجاه الصحيح، بل هو الصحيح الصحيح.

الخطاب الديني يتغير من عصر الى عصر

حينما يطرح كمثل هذا العنوان: هل يعني أن لكل عصر خطابه ؟ وهل أن هذا الخطاب يجب أن يتماشى مع أذواق الناس المتغيرة ؟ وهل تغيير

أسلوب العصر العام يقتضي تغيير الخطاب الديني ؟ ولماذا نحن نؤكد على ذلك، هل هي أزمة علماء واعين أم أزمة في مخ الأمة وأفكارها أم ماذا ؟

في الحقيقة إنّ تبدل العصور وعلى سبيل المثال عصرنا الذي نعيش فيه فقد تبدلت الوسائل المستعملة وشكل الحياة ووسائل الإتصالات communications التي أفرزت ما يسمى بالقرية الجديدة كل ذلك جلب معه تبدل في العلاقات الإنسانية وتطور في الأذواق، فالدابة السريعة أصبحت الطائرة والسيارة ولم تعد تلك الناقة السريعة، فتبدل ذوق الناس في إختيار السيارة الخاصة وليس الناقة المعرّبة، وكذا اللباس وحتى التبدل الديني ووسائل الإطلاع على الدين وكذا وسائل التبليغ والدعوة وكذا أسلوب عالم الدين الجديد ومدى وعيه وإنغماسه ولا ننسى ذهنية الأمة التي سبقت الخطاب الديني المتأخر، والنظام السياسي القائم الذي يحكم هذا البلد أو ذاك. ماذا يعني تقليد لباس الأجانب كالمغنين والرقاصين أو الإنصراف عن كتب الدين الى كتب ومجلات تلهي الهاوي لها باللطيفة والنكتة، وهم نفس الشباب الذي هاموا في مهرج غربي وجهلوا عالماً إسلامياً كان سبباً في تقدم العالم العلمي والطبي، أليس هي نتيجة لتخلف الخطاب الديني وقصور في التجديد؟ مما أوجدت إرتباكاً في الذهنية العامة للأمة وتركتها لوحدها تتخبط في الوحل، أ ليس إنشغال الخطاب الديني بأخطاء الماضين وتكفير البعض والصاق التهم بالبعض الآخر وسرقت الأمة من دينها؟ لقد كان واضحاً القصور الواقعي في الخطاب التقليدي.

لهذا كان لابد من النهضة العالية والتصميم الثابت من أجل خطاب ديني يسبق ما ستقع فيه الأمة ويحقق أمالها ومآربها فالأمة تحب إسلامها لكنها تقصر عن الإجتهاد لمعرفة طريقها.

إن الخطاب الديني المقبول هو الذي يقف أمام تحديات العصر ويجذب مخاطبيه .. نحن نملك من أصحاب هذا الخطاب ولكن مع الأسف يقف أمامهم من هم لا زالوا لا يستطيعون أن يماشوا الزمن لقصور وتقصير منهم وهم يقفون أمام هؤلاء شاغلين.

إن المجتمع وكذلك الفرد بحاجة الى تجديد الخطاب الديني والثقافي بما يلائم العصر.

كما أنّه لابد من إيجاد آليات جديدة تضمن التبادل الحر للأفكار في الحوار.

إن تجديد الخطاب الديني ليس تجديداً للواقع بل تجديد المضمون الذي يحويه الخطاب.

المبحث الرابع
الخطاب الديني لإبن ميثم

مما يثير الفخر أن الدين الإسلامي دين علم وفكر وعقل، دين يتطور مع تطور الوجود الإنساني وحاجاته وتقدمه الإجتماعي والثقافي والتكنولوجي، ولذا كان من سمات هذا الدين احتواؤه لعملية الإجتهاد في الأحكام ومراعاة المكان والزمان، والحرص كل الحرص على رعاية المجتمع وظروفه وما يدخله من مبادئ وأفكار وعلوم وتطورات ووسائل جديدة.

إن الإجتهاد في الدين الإسلامي رحمة الهية تبعث الدين من الجمود والتقولب بما مضى من الزمن الى دين حي حديث التولد يعيش المجتمع ويعيشه المجتمع، الأمر الذي عده أصحاب المذاهب الأخرى من غير مذهب أهل البيت كارثة ألمت بهم لا يقوون على تجاوزها.

إن عملية الإجتهاد وممارسته حقيقة إسلامية يستلزمها النقل والدين معاً ولا يمكن الإنفكاك منها لأنها إطار ومحور لعملية التعامل مع الدين سيما إذا ما عرفنا أن كل يوم جديد. وينبغي أن يعيش المسلم حياة الإسلام دون ريب أو شك.

لذا فإنّ عالم الدين عليه أن يفهم لغة عصره ويتكلمها ويكلم الناس بها فلا يمكن لإنسان من الحديث بلغة تغاير مخاطبيه؛ فالمبلغ يتحدث لغة قومه، ففي مجتمع ينطق العربية يتكلمون معه في العربية، ومجتمع ينطق الصينية يتحدثون معه بالصينية، وإلاّ يصبح العمل بلا جدوى ولا فائدة.

وعلى هذا الأساس فأن الشيخ العلامة ابن ميثم البحراني عاش عصراً يتحسسه كاملاً ويقدر ما فيه من أفكار وآراء، كما أن الجو السياسي والإجتماعي كان يعج من الحوادث والمصائب الكبرى، كما يقولون، ما يستعظمه السامع ولا يهون ذكره، وهذه المصائب وأن عمّت إلاّ أنها بُلي المسلمون فيها ما لم يبتل أحد من الأمم حيث جاء التاتار وأجتاحوا آسيا الى غربها وعاثوا في الأرض الفساد فخربوا البلاد وقتلوا العباد وشاع الفساد وكثر النهب، فهرب الناس يختفون خوفاً من السيف [٧].

الخلل الذي كان واضحاً من عدم الإستقرار والتناحر بين الدول القائمة آنذاك والعداوات المشرعة مذهبية أو عنصرية أو غير ذلك.

فكان لشيخنا كمال الدين بن ميثم الموقف المناسب في خطابه وعمله وفقهه وبحوثه، وهو ما سنقوم بنقل آراء ونماذج له رحمه الله. سيما إذا ما عرفنا أن ابن ميثم شخصية علمية جمعت بين الفقاهة والأحكام من جهة وعلم الكلام والفلسفة من جهة أخرى إضافة الى أن علم الكلام نفسه يفترق في بعض الأمور عن الفلسفة إذ أن علم الكلام يبحث عن حقايق الأشياء وإختيار العمل في الأصلح.

لهذا كان لابد من أن يكون الخطاب الديني مناسباً ومتسقاً مع الحياة والأجواء السائدة آنذاك.

أضف الى ذلك أن العلماء وأن بلغوا في درجة الإجتهاد القمة إلاّ أن حدود التفكير تختلف من شخص الى آخر ومدى إدراكه ووعيه هما الآخران يختلفان من عالم الى آخر، بل نجد أن البعض ربما يملك من القابلية الفقهية والقدرة الإستنباطية العالية لكنه لايفهم متطلبات محيطه ومجتمعه، بل لا يمكنه أن يخاطب جماهيره ولا يقوى على الإستجابة لمبتغياتهم، تبدل المحيط والجماعات والناس يستدعي من العالم أن يعمل قوته في سبر أغوار هذه الأمة. أنا أضرب مثالاً على ذلك من أجل تقريب الحالة للذهن لمن لم يلتفت بعد الى ما نريد درجه هنا.

حينما نتابع مسيرة العلوم في تأريخ المسلمين والأصول المنهجية في القرآن الكريم والحديث الشريف نجدها علامة فارقة في طريق التحرر وتجديد الخطاب الديني، ولعل الجهود العلمية التي صنعت الحضارة الإسلامية كان سببها الأيدي المخلصة التي بذلت كل جهودها في تطور التعامل الديني مع الزمن[٨].وكيف أسست أصول البحث على المنهج القرآني والتوجه النبوي وجهود أئمة الهدى وفقهاء وفلاسفة المسلمين ممن جاءوا حيث أضفوا على منهجيتهم إبتعادها عن الغربة في التفكير والتوجه الإجتماعي السائد. لم يقفوا أمام التقدم ولم ينزلقوا أمام التيار الفاسد الظالم العامل لمصالحه. حتى جاء علماء بعدهم في عصور قريبة ساروا على نفس الحالة فلم ينحنوا لميول المستشرقيّن المشوهة، وابتعدوا عن المفاهيم الملتوية غير الملتزمة بأخلاقية الإسلام وبكل جرأة وقوة، ولم يتركوا آمالهم تتحقق بالجمود والتمني وكما يقول الشاعر:

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

فغلاباً بالحق والجرأة والشجاعة والإرادة. وليس بالتبعية الفكرية التي ينهانا عنها الإسلام ويذمها حينما تكون تبعية عمياء.

فكان شيخنا الجليل كمال الدين بن ميثم بن المعلى البحراني ممن أحيا البحث العلمي الإسلامي بعد سبات ليس بقصير وتنمية توظيف البحث العلمي الإسلامي في أهدافه المنتظرة منه، لأن البحث العلمي الأساس المهم في بناء المجتمع.

إذ أن إبن ميثم وعى وظيفته كعالم دين .. فكان والحق قادراً في شرحه للنهج من إظهار أفكار علي أميرالمؤمنين عليه السلام وإن كانت تحتاج الى تطوير، ولكنها تتلاءم مع العصر الذي عاشه إبن ميثم قبل حوالي سبعة قرون .. فهناك فرق بين عالم يصدر أحكامه وخطابه عن بينة وعلم وأدلة وحجج دامغة، وبين من يطلق ذلك جزافاً يدعي العلم أو يدفعه دافع مغرض.

و قبل الكلام عن لغة الخطاب الديني لإبن ميثم في آثاره وأفكاره نشير الى أن شخصية هذا الشيخ الكبير إمتازت بأمور مهمة :

١- حريته بطرح آرائه، وعدم تأثره بقوة خارجة عن مصادر التشريع.

٢- ذكاؤه الرائع ومتابعته للبحث والحوار وآراؤه الأخرى.

٣- معرفته بمحيطه وأجواء عصره.

٤- إخلاصه في إظهار الحق.

٥- عمقه في الفهم وسبره حقائق العلوم.

٦- إنطلاقته في التواصل العلمي بين جهابذة عصره من علماء العراق وجبل عامل وايران والأمصار الأخرى. على الرغم من عدم وجود أنظمة دراسية وجامعية ومراكز بحث كما هو اليوم.

٧- إمتلاكه لخصوصيات جعلت منه سباقاً في تعامله الصحيح مع عصره؛ لأن العالِم الذي يعيش عصره وليس العكس هو من كان أعرف بقواعد وأصول الأحكام ولديه معرفة أفضل للنظائر والأشباه كذلك أقدر في معرفة الروايات وتطبيق الأحكام على المصاديق ومعرفة موضوعية الأحكام وكل ما يلزم لإظهار نظر أدق حول القضايا والمسائل ومن ثم تجعل الأخطاء أقل في إستنباط الأحكام الشرعية .. وهو ما يحتاج الى اسلوب دقيق في الإستنباط للأحكام الجديدة المبنية على درك واع لأوضاع الزمان والمكان واستمرار مسيرة التطور. وقد لاحظنا في أعمال الإمام الصادق (ع) العلمية في تنظيم الفقه وجعله منهجياً مزيلاً منه الشوائب والزوائد وتقديم أساليب عملية قوية تناسب الزمان.[٩].

الخطاب الديني لشيخنا إبن ميثم من خلال آثاره

إننا نستنطق الخطاب الديني لشيخنا الأجل إبن ميثم البحراني رحمه الله من خلال جولة في كتبه ورسائله وأحاديثه وزياراته ومذكراته وما يقوم به من نشاطات وأعمال وفعاليات إذ تعطينا هذه الأمور صورة لأسلوب خطابه الديني الذي كان له أثر كبير في تفعيل الحركة الدينية الإسلامية، شروحه لكتاب نهج البلاغة وما أظهر من نقاش ممتاز بحيوية مع أحداث التأريخ فضلاً عن مقدمته الرائعة التي تعطي القارئ ديباجة علمية سريعة، وسلاسة الأسلوب والبيان تفيده حتى ولو كان عالماً ومتخصصاً في علومه.

حينما نطالع كتب الشيخ نشاهد إشارة الحكمة عليها. فتراه يبدأ الكتاب بخطبة رائعة تصل الى صفحة، ثم بعد ذلك يبين حقيقة الدين وحياة

الأنبياء وأسلوبهم في معالجة الجهل وحينما يستعرض كلام سيد البلغاء اميرالمؤمنين علي (ع) يعرضه بإعتباره علامات باهرة وأنوار ظاهرة لما إمتازت شخصيته وسلوكه المثال للآخرين. كيف يعرض الكتاب وشروحه وأهدافه وملامحه لبيان الحقائق التي جاءت بها شذرات أحاديث أمير المؤمنين عليه السلام، كي يظهر الحقيقة الكبرى لهذا الكتاب مشيراً الى جامعه السيد محمد بن الحسين الموسوي «الشريف الرضي» رضي الله عنه، والغاية من ذلك، كما أنه وقبل البدء بالشرح يصنف الكلام العلوي وكتاب النهج الأول بعد كتاب الله تعالى أولاً وأحاديث رسوله الكريم (ص) الذي يعتبر مصباحاً يستضاء به من الظلمات، ولأسراره المفيدة.

إن المقدمة التي بدأها عالمنا الجليل وهو يشرح نهج البلاغة يستعرض فيها ملامح علوم البلاغة من ذكر دلالات الألفاظ وتقسيمها ومصطلحات البلاغة والنحو والصرف والألفاظ في الترادف والتوكيد والمشترك وأقسامه وحتى صفات الحروف ومصطلحات الحقيقة والمجاز والتشبيه وأغراضه. ويتحول بعد ذلك الى الخبر والفرق بين الخبر والإسم والأخبار بالفعل، فالفعل مشعر بالزمان المعين دون الإسم، وكذلك الإستعارة وحقيقتها وأقسامها وأحكام المبتدأ والخبر وكذلك أقسام النظم والحذف والإضمار ثم التقديم والتأخير وكذلك حقيقة الخطابة التي هي صناعة يتكلف فيها الإقناع الممكن للجمهور وغير ذلك مما يشوق القارئ ليرى مصاديق هذا الشرح والبيان في كلام النهج.

كما يشير الى صفات علي في أستكماله للفضائل النفسية والعلمية وأفعاله وما يتطلبه المقام.

أسلوبه

إمتازت تأليفات الشيخ بقصدها

ـ للحق وإعلاء كلمته ونشر لواء العلم والحكمة[١٠].والإيقاظ من السبات لفهم حقائق الدين المودعة في المصحف.

ـ والإنصراف عن المزور والمزيف مما هرع اليه أهل الغفلة وأصحاب الغرض، الذين كادوا أن يقضوا على ما للدين من القوة وروعة الجمال.

ـ طريقة الهادئ في النقاش والجدال العلمي من دون أن يزيغ أو يُفزع الى ما يوجب إرضاء الغرور وإسدال الستار على الحق ... والجدال بالتي هي أحسن، أقصر طريق للبلوغ الى الحق ... بل أفضل عامل للجهاد في سبيله.

ـ معاهدته لنصرة الحق حيث عاهد الله في أول كتابه الشرح الكبير، أن لا ينصر فيه مذهباً غير الحق، ولا يركب هوى لمراعاة أحد من الخلق، وقد وفى بما عاهد. فجزاه الله أحسن الجزاء على ما قدم في سبيل العلم والدين من صادق الجهود والشاهد على أن الحق الرائد المالك لزمامه ما قيل : أن إبن أبي الحديد ... يتوهم من شرحه أنه من الإمامية وليس منهم عكس إبن ميثم، لأنه كثيراً ما يسلط يد التأويل حتى فيما لا مجال فيه للتأويل.

ـ أروع مصدر يستقى منه هو الشرع، وإعتماد ما ورد من الآيات وتعقبها إذ يسرد ما جاء من الأحاديث والآثار، ثم ينطلق بعد ذلك في ذكر ما أحكمه من دلائل الحكمة وشواهدها من دون أن يدخل في مضائق شعاب الحدس والتخمين.

ـ بإعتباره عالماً متكلماً فقد مارس وظيفته وأبدى مواقفه التي ينبغي أن يقفها عالم ديني متشرع في مجالاته المختلفة.

فنجد خطابه في الشرح والتفسير له أصوله العميقة في عالم المتون والنصوص المشروحة.

ـ في الصياغة والرصانة حيث كانت صياغته معاصرة للغة العصر آنذاك وهناك النماذج الكثيرة للذي يريد أن يقرأ شرح نهج البلاغة.

ـ في إبداء النظر والرأي الشرعي والفقهي العالي والإجتهادي نراه حذراً من قول ما لا يليق بالدين كما يفعل البعض ممن هبطت تقواه وزاد تدخله وفشل علمه، فكان يراعي الأحكام حقاً. ويا ليت نفتح بعض البحوث التي كتبها ومسحة الحكمة ظاهرة عليها.

ـ نهجه الخاص وعدم تقليده لمن لا يرى في آرائه المتعة فهو شق طريقه مستقلاً رائداً وبجرأة ليقول: أنا إبن ميثم البحراني الماحوزي. لقد إستقل في آرائه رغم معاصرته للفطاحل من العلماء.

ـ علميته الرائعة والهادئة .. حينما ندرس التأريخ المعاصر له ونتابع انسيابه وحركته نلاحظ صورة الهدوء رغم وصوله أهدافه.

كما نلاحظ كتابته في الأدب وعلوم البلاغة حيث يشكل صورة جميلة ذات نكهة خاصة وهي جاذبة في وجودها... إضافة الى مناقشاته مع الآخرين بنفس علمي إستدلالي. ولعلي لا أخطئ في رأي أن نقاش الفلاسفة يقترن بأدلة مرضية ومقنعة.

و أخيراً لابد أن نسأل :

هل كان الخطاب الديني لإبن ميثم واقعياً ؟

هل نحتاج الى خطاب ابن ميثم في الوقت الراهن كما هو ؟

هل يحتاج الخطاب الديني لإبن ميثم البحراني الى تطوير وتجديد ؟

و كما قلنا في زوايا البحث سابقاً من أنّ لكل عصر خطابه الديني وأسلوبه المطلوب وأن خطاب إبن ميثم الديني يحتاج الى تطوير بعد هذا الزمن الطويل، وفي الوقت الذي كان يلائم عصره، فاليوم لابد من خطاب يلائم العصر لكنه يبقى خطابه شعلة مضيئة وإذا كنا بحاجة الى خطابه

كخطاب ديني. فإن إبن ميثم حينما يبعث الآن سيتطبع بطبيعة هذا العصر ويخرج خطابه بلغة العصر فإذا كان خطابه في عصره واقعياً وملائماً فاليوم لابد من معرفة الواقع المعاش وسبك وصياغة خطابه كما هو في الوقت الحاضر. رحم الله إبن ميثم وحشره مع أوليائه الصالحين وجعلنا خير خلف لخير سلف. والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

١ - لم أعثر على مصدر يشير الى محل ولادته لكنه ولد في البحرين دون ذكر البلدة أو القرية..

٢ - تاريخ وفاته حسب ما ثبته آغا بزرك الطهراني في موسوعته.

٣ -البحرين بلاد عريقة وجوداً وشهرة علمية إذ ترجع الى أكثر من ثلاثة آلاف قبل الميلاد وذكر أنها كانت تشمل الأحساء والقطيف، كما كانت ولا تزال مؤلاً علمياً لطلبة العلوم الدينية لمدارسها العلمية ونبوغ علماء ومفكرين فيها إذ اشتهرت بخصوبة بيئتها العلمية كبيئة معطاءة طيبة ساعدت ظروف مختلفة في تكوينها منها هجرة العلماء اليها إحتماءً بها وطلباً للأمان وبعيداً عن جور السلاطين والظلمة كما أنتجت إنتاجاً علمياً لا يمكن الإستهانة به نتيجة الوجود العلمي فضلاً عن صلتها القوية بالمراكز العلمية المشهورة بالعالم الإسلامي كالنجف الأشرف التي تحوي أبرز جامعة إسلامية في العالم الإسلامي والمشهورة بعراقتها التأريخية التي تتجاوز الألف عام وكذلك المدرسة القمية في ايران ومدرسة ري الشهيرة.

٤ - المصدر السابق / ص ١٣.

٥ - البقرة / ١٢٠.

٦ - الأحزاب / ٣٩.

٧ - مقدمة كتابه شرح نهج البلاغة / ج١.

٨ - ينظر بحثنا «الدور العلمي للإمام الصادق (ع)» ؛ المدخل؛ بحث مقدم الى المؤتمر الوطني حول الإمام الصادق(ع) المنعقد في طهران / ١٤٢٦هـ.

٩ - الدور العلمي للإمام الصادق (ع) ؛ دكتور عبدالأمير سليماني؛ المدخل.

١٠ - مقدمة كتاب شرح نهج البلاغة ؛ ج١ ؛ منشورات مؤسسة النصر.